

غيوم ميسو يهتك ميثاق الصمت ويحقق العدالة للأموات

«حياة الكاتب السرية» رواية عن أسرار الكتابة والصمت والعزلة



محاولة كشف الحقيقة والشخصيات المركبة (لوحة للفنان سعد يكن)

لم يمض في الجزيرة بل اقتيدي كي تمارس عليه عقوبة جريمته، ولكن بشكل آخر. حكاية الروائي الشاب تأتي في إطار الحكايات الكثيرة المتعددة، أو ما يسمى بخط القصة (story - line)، والتي يمررها المؤلف على خلفية البحث عن سر فاوولز؛ حكايات تكشف لنا دور الكاتب الفعلي، وليس الشخصية المنعزلة الجالسة في برج عاجي، بل هي متأثرة بما يحدث من حولها من صراعات وموقفه منها بالمجابهة لا بالصمت، فالكتاب مثقف عسوي بتعبير غرامشي.

النص يكتسب تعددية المعنى من خلال ألعاب السارد، التي يسعى بها إلى إحداث ارتباك للقارئ بين المتخيل والواقعي

نرى الراوي يستعرض لنا عالم النشر وطبائع الناشرين، وعلاقة الناشرين بالمؤلفين، والجوائز الأدبية، والبيست سيلر، وكان المؤلف أشبه بعين على الواقع الثقافي، يقدم رؤية واقعية من داخل المطبخ نفسه، عبر شخصية المروي عنه فاوولز، وما تعرض له من إكراهات ورفض وتهميش قبل أن يحتل هذه المكانة، وهو درس بلغة للكاتب الناشئ بالأبواب، وبالإقتبال - في حد ذاته - يمهد للنجاح، مستعرضاً نماذج من الأعمال التي صارت علامات وقصص رفضت في البداية من الناشرين، فرواية كاري لستيفن كينج رفضت من ثلاثين ناشرًا، كما رفض الناشر من المجلد الأول من هاري بوتر، واعتبروه طويلًا بالنسبة إلى الأطفال، أمثلة كثيرة يسوقها الكاتب الشاب باتاي، كما يتحدث عن النشر والكتب في ظل العصر الرقمي. في الرواية أفكار عن الأدب الحقيقي والأدب الكلاسيكي الموجه إلى الجمهور العريض، والقارئ الحقيقي أو القارئ النموذجي بتعبير إمبرتو إيكو الذي يضيف على النص ثراءً ومعاني لم يكن يقصدها المؤلف، فالكتاب لا يكتب لنفسه إلا قائمة المشتريات، فكما يقول إيكو "كل الكتابات - عداها قائمة المشتريات - هي رسائل موجهة إلى شخص آخر"، وخيبة أمه في ما يرى من واقع أدبي صادم هو "صحراء أدبية".

المتوحشة التي تتاجر بالبشر أحياء وأمواتا؛ الحرب التي تخلق ضحايا جدد، بالطبع هم ليس الذين سقطوا في رحاها، وإنما كذلك الذين شوهتهم الحرب داخليًا، فصاروا بالانتقام، لا يقلون عن أدوية ووحشية عن مجرمي الحرب الحقيقيين.

صحراء أدبية

تبدأ الرواية - في إطار حالة التشويق التي يحدثها الراوي - بحكاية الكاتب الشاب رافاييل باتاي، بضمير الأنا، والذي يروي جزءًا كبيرًا عندما يصل إلى الجزيرة عن فاوولز، فيخبرنا بأنه هو ابن الرابعة والعشرين عامًا، الجامعي، الذي يعمل في وظائف صغيرة فقط لدفع الإيجار، رافضا البحث عن وظيفة تناسب اختصاصه، ألف رواية بعنوان "خجل القم" ورفضت دور النشر نشرها، ثم خاض رحلة بحثه عن كاتبه المفضل، وبالفعل يذهب إلى الجزيرة، مستغلا عرض عمل لمدة ثلاثة أشهر في مكتبة صغيرة في الجزيرة، وما إن يتم قبول طلبه حتى يذهب إلى الجزيرة، وهناك يتحليل كي يصل إلى منجزل الروائي فاوولز في "لا كروا دو سود"، وينجح في كسر عزله، ويترك له مخطوطة روايته التي رفضتها دار النشر، طالبًا منه بعض النصائح لتحسين كتابته، وإن كان ثمة سبب آخر مضمّر يسعى إليه وهو الكشف عن سر ناثان فاوولز، وأسباب توفقه عن الكتابة بعد أن حطمه الحزن على حبيبته التي قتلها - على حد وصفه - "أسوأ نوع من الأندال".

وهو ما يتحقق له، بل يستطيع في نهاية الرواية علاوة على كشفه شخصيات الرواية ودوارها المتبسة في جريمة القتل التي روحت أمن وسكون الجزيرة، وهي المتصلة بالجريمة التي حدثت في فرنسا عام 2000 بعد انتصار فرنسا في بطولة كرة القدم الأوروبية بجيل زين الدين زيدان، وراحت ضحيتها أسرة مكونة من أب (الكسندر فيرنوي) وأم (صوفيا) وطفل (تيو) في الحادية عشرة من عمره، وإن كان سيتضح في النهاية أن الأب الطبيب المشهور

مع أن اسم غيوم يظهر أسفل عنوان الخاتمة، إلا أنه أثناء إسهابه في السرد عن تفاصيل رحلته إلى الجزيرة وشرائه لمنزل ناثان فاوولز، يخبرنا أنه أثناء انهماكه في أعمال الصيانة والترميم للمنزل كي يتخلص من شبح فاوولز، بدأ وفي نفس الوقت بكتابة رواية "خجل القم"، وهذه الرواية هي التي قدمها السارد باتاي لـ"دار نشر كالمسان ليفي" - كما هو واضح من تقرير الرفض في الرسالة المخبئة في أول الرواية - ورفضتها، ثم أعطاها لـ"ناتان وما إن قرأها حتى أعجب بها ونصحها بالأبقاء على تقرير إصدارها، علاوة على تقرير لجنة القراءة عن "دار نشر كالمسان ليفي" الذي يرد فيه اسم رافاييل باتاي وعنوانه، وكاننا أمام لعبة جديدة من ألعاب السارد، التي يسعى بها إلى إحداث ارتباك لدى القارئ في ما بين المتخيل والواقعي.

لو قرأنا الرواية قراءة سطحية، كما يهينها العنوان الخارجي "حياة الكاتب السرية" أو السيرة المختصرة في أول الكتاب عن معتزل بومون، لاستطعنا القول إنها مجرد رواية تحكي عن حياة الكاتب ناثان فاوولز، الذي اختلف عن الساحة الأدبية معتزلاً - في جزيرة بومون بالبحر المتوسط - كل ما حققه من نجاحات بعد روايته الأسطورية "لوريلاي سترابنج"، رافضا رفضًا قاطعًا التواصل مع وسائل الإعلام أو الإذلاء بأية تصريحات، فقد أثار الكاتب على حد تعبير وكيله الأدبي جاسبر فان ويسك، أن يكمل حياته في إنجاز أمور أخرى "لقد طوى للأبد صفحة الكتابة، وعالم النشر"، وكان الكاتب يتمثل لشعار جزيرة بومون القائل "لكي نعيش بسعادة، علينا أن نعيش في الخفاء"، دون أن يعلم أن كل ما خفي وصيره الكشف والفضح، وهو ما حدث، وانكشفت مع السر أسرار وأسرار.

هل لنا أن نقبل بهذا الطرح الذي يسعى المؤلف إلى تأكيده (بالعنوان) والناشر (بكلمة الغلاف - النص المحيط) والراوي (بطبيعة التحري التي بدأ عليها)، والترويج بإنها حكاية عن كاتب ينشد العزلة، إذا كان الأمر هكذا فيجب أن نفكر في هذه الأسئلة: ما سبب هذه العزلة؟ ولماذا تغاضى عن مجده الأدبي؟ وهل ما قدمه وكيله الأدبي مقبول أو مقنع؟ في ظني أن الرواية تتجاوز هذا كله - وإن كانت لا تغفله - إلى معانٍ أعمق وأبعد من تناول سيرة حياة كاتب منعزل فقط لتقدم لنا بصورة بعيدة عن الخطابة، إداة للحروب وبشاعتها، وكذلك الرأسمالية

هذا كله في القسم الأخير المسمى "خاتمة" إلى زهول ودهشة: رواية ميسو تجمع بين روايات القراءة؛ حيث ثمة حبكة بوليسية مثيرة، تجعل القارئ (السليبي) يلهث خلفها بحثًا عن الحقيقة؛ حقيقة الاختفاء ولغز هذا التحول من الشهرة إلى الانزواء، والكتابة إلى الصمت، وهو ما يتسجد أفق انتظار القارئ عن أسباب هذا الاختفاء؛ لكن في ظني أن كل محاولات القراء ستذهب سدى وهم يلهثون خلف الإحساس بالنهاية، فكما يقول الناقد فرانك كيرمود "عندما نقرأ رواية فإننا ومنذ السطور الأولى نتوقع نهاية المشوق ذي الحكمة البوليسية، كسر حواجز التوقع بالنهاية، فإلى آخر صفحات الرواية نحن مع أحداث جديدة، ومثيرة تغير مسار القراءة والتأويل.

وفي نفس الوقت هي رواية تنتمي إلى النصوص الكتابية بتعبير رولان بارت؛ بما تثيره من إشكاليات متعلقة بالكتابة ذاتها، فالنص يحتاج إلى قارئ إيجابي نشط، منتج يشترك (إن لم يتجاوز) الكاتب في إنتاج نصه، إضافة إلى إثارته لقضايا متعلقة بالنشر والإبداع وعلاقة الصراع بين المدع - الناشر، وبصفة عامة، بكل ما يتعلق بسياسة النشر من توزيع وانتشار وخطوات توقيع وجوائز، ومن ثم يكتسب النص تعددية المعنى، فالقارئ شريك في إنتاجه، بإضفاء تاويلات جديدة.

أول شيء نلاحظه هو هيكل الرواية الذي يشابهه ما تقسيم الكتب الفكرية، فالرواية وفقًا لهذه البنية الشكلية تتكون من مقدمة وفلانة أقسام وخاتمة. الأقسام الثلاثة كالتالي: الكاتب الذي لم يعد يكتب، المالك الذهبي الشعر، الحقيقة المرة، وتحت كل قسم مجموعة من الفصول بعناوين مستقلة. ولكي يضع المؤلف القارئ في حيرة وارتباك، يجعل المقدمة باسم جان ميشيل دويو، وهو اسم لا علاقة له بمؤلف الكتاب، يوجز فيها حكاية المروي عنه ناثان فاوولز وقصة انزواله في الجزيرة.

ثم نجد خاتمة تتكون من جزأين، بتوقيع المؤلف نفسه غيوم ميسو، وهي تنقسم إلى قسمين الأول يأتي على هيئة سؤال "ما هو مصدر الإلهام؟"، ويعنوان فرعي طويل نسبيًا "تعلق على هامش: حياة الكاتب السرية" ويسرد فيه علاقته بالجزيرة ورحلته إليها، والأهم يواصل فيه كشف أسرار ناثان فاوولز، الذي يقدمه لنا على أنه تزوج من ماتيليد وأنجبا طفلًا، أما الجزء الثاني فهو بعنوان "بين الحقيقة والخيال" كاشفاً عن مصادر إلهامه، رادا بعض العناصر السردية إلى أصلها البعيد، في حرص على الفصل بين الخيالي والمرجعي.

المتوسطة، وديبير والد صوفيا هو الآخر ينتقم ويحقق العدالة من كريم عمراي وأبولين شايوي. الرواية - إجمالاً - تندرج تحت روايات التحري والاستقصاء، وهي ثيمة بوليسية بامتياز؛ حيث البحث عن معلومة مجهولة بغية الوصول إلى الأسرار الخفية، والأمر هنا لا يقتصر على السارد رافاييل باتاي (المؤلف الشاب) فقط، بل تقوم به أيضا شخصية ماتيليد التي تتحرى حول أصحاب الصور، وبالمثل تقوم بإنجاز ملف عن الكاتب ناثان فاوولز.

ونحن نسير خلف الراوي، مترقبين كشف الأسرار الخفية لاختفاء الكاتب، نفاجأ بهذا السؤال: والسارد الغائب يوقف حركة السرد اللاهثة ليقدّم درسًا نقديًا عن سمات الرواية الجديدة. وهو في الأصل يستعير الكولاجات التي امتلأ بها النص، لا يترك السؤال معلقًا وإنما يأتي جوابه كالآتي "إن تخلق شخصيات تغير حسب فرائك وتعاطفهم. ثم تقتل هذه الشخصيات، وتجرح قارئك، وهكذا سيذكر دائما روايتك". هذا المفهوم للرواية، يستعين به غيوم ميسو في القسم الثالث وتحديداً في وحدة "وأسدل الليل ستاره" إذ تتكشف الكثير من الحقائق الصادمة في الرواية.

ما تعريف الرواية الجيدة؟

بكل تأكيد هذا المفهوم ينطبق على هذه الرواية فحالة التعاطف المقترنة بشغف وفصول المعرفة، التي لازمت القارئ مع بدء سرد الحكاية عن انزوال الكاتب ناثان فاوولز، لا تلبث أن تتحول - قرب نهاية الرواية - إلى النقيض؛ إذ يتحول الحب والتعاطف إلى كراهية ونفور، بل يتبدل



لكل شخصية جريمة تلاحقها (لوحة للفنان سيروان باران)

غياب العدالة كان دافعا للكثيرين إلى تفعيل القانون الشخصي أو قانون الغاب، وتنحية كافة الأعراف والقوانين الرسمية جانبا مقابل الثأر الشخصي، وهو ما يشير إلى التمرد على فشل الدولة بأجهزتها وقوانينها. وهذه الثيمة كانت محور الكثير من الأعمال الفنية والأدبية، ونجدها حاضرة في رواية "حياة الكاتب السرية" المركبة للكاتب غيوم ميسو.



ثيمة إنصاف الضحايا منتشرة باطراد في الخطاب الروائي (العالمي والعربي على السواء)، وقد يقوم بها الشخص نفسه أو من ينوب عنه، ففي راحة "الكونت دي مونت كريستو" (تأليف إكسندر دوما بالتعاون مع أوغست ماكيه) ثمة انتصار للعدالة بانتقام البطل إدموند دانتى قائد السفينة الذي عاد بها ببراعة بعد وفاة قبطانها، ممن تسبب في دخوله إلى السجن بعد اتهامه بالخيانة وهما: دانجلرز محاسب السفينة، وفرناند مونديجو.

وفي الأدب العربي جعل نجيب محفوظ بطل روايته "اللص والكلاب" (1961) سعيد مهراي يسعى إلى تحقيق العدالة بنفسه، بعدما خذله الثورة، وقد ضاق ذرعا بالتفاوت الطبقي، وبالمثل صفيه في رواية "خالتي صفيّة والدير" (1991) لبهاء طاهر، هي الأخرى نصبت نفسها خصما وقاضيا وجلادا وعاقبت حربي حتى الموت على جريمة لم يرتكبها، لكنها كانت تستجيب للعرف في تحقيق العدالة. وأحد سعداوي في روايته "فراكتكتين في بغداد" (2014) يجعل المسخ "الشسمة" (التي تعني وفق المصطلح العراقي الذي لا اسم له) أو الجرم إكس، ينتقم "ضحايا يطلبون الثأر لموتهم حتى يرتاحوا".

الكاتب الشبحي

لا تختلف رواية غيوم ميسو الجديدة "حياة الكاتب السرية"، الصادرة مؤخرا عن دار نشر نوفل - هاشيت انطوان 2020، بترجمة رانيا الغزال، عن جملة الروايات التي ينشد فيها الأبطال العدالة، حتى ولو تحولوا إلى مجرمين عتاة. فالنخبة الصادمة التي عاشتها الطفلة ماتيلد موني فيرنوي ظلت محفورة في ذاكرتها، ولازمتها طيلة عشرين عامًا، بل احتفظت في ذاكرتها الفردية بدليلها على القاتل؛ أي الحذاء الذي رآته وهي مختبئة أسفل السرير.

ظلت ذكرى الحادثة تطاردتها وتقض مضجعها، فطيلة العشرين عامًا راحت تجمع الخيوط وتفتش عن القاتل، وقد ازداد حماسها بعدما وصلتها فلاشة الصور التي كانت على الكاميرا التي فقدت على أحد الشواطئ. وبالفعل نجحت في تحديد هوية القاتل، وهو ما جعلها تمارس دور الجلاد لمعاقبته. والروائي المعتزل ناثان يحقق العدالة بنفسه ضد الكسندر فيرنوي الذي قتل حبيبته بان يخطفه ويقوده إلى جزيرة بومون